﴿ .. احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ⦗٤٠⦘ ﴾ [هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقي الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال : إنهم عاشوا فى تلك السفينة عامين [1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا [2] وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ⦗٤١⦘ ﴾

هذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [هود]

وحَمَلَ نوح عليه السلام فى الفُلْك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ⦗٤١⦘ ﴾ [هود]

---

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبرى عن ابن إسحاق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٥٤) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٧) عن ابن عباس أنهم مكثوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً ، أى : حوالى خمسة أشهر . فالله أعلم .

(٢) المجرى (بفتح الراء وتُمال نحو الكسرة) : مصدر ميمى بمعنى الجرى . قال تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ⦗٤١⦘ ﴾ [هود] أى : جَرْيُها وإرساؤها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس القويم] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه.

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلِى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِى.

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ..﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

ولم يقل : «اركبوا عليها».

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها [1] نوح عليه السلام بوحى من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار.

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

يُبيِّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليتيح

---

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر] ، وتأتى عقب التربية والتعليم بحراستى وعنايتى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور المتينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف].

الرُّسُوَّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان.

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه.

وقول نوح عليه السلام:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضي يقول مفتتحاً الحكم: «باسم الدستور والقانون» أي: أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون.

ونوح عليه السلام يقول:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة.

ولذلك يقال: «كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبْتر»[1].

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليًا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليًا فهو يحتاج لفكر ورويَّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول: «باسم القوى القادر» ولكى تحصل على علم ؛ تقول: «باسم العليم» ، وتريد الغنى ؛ فتقول: «باسم الغنىّ» وحين تحتاج إلى الحلم تقول: «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول: «باسم القهار».

(١) أبتر: أى مقطوع البركة ، لا خير فيه.

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أن تنادى ربك وتتبرك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والجلال .

وإياك أن تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبِّقوا - كغالبية البشر - كل التكاليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التى ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هى الميزة فى قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصِفُ السفينة ورُكَّابها :

﴿ وَهِىَ تَجْرِى(1) بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(1) الجرى : السير السريع . جرى الماء يجرى : سار . وجرت السفينة : سارت وأسرعت . قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ..﴿٤٢﴾ ﴾ [هود] وهى سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة] أى : فى السفينة المعهودة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى] وحذفت الياء تخفيفاً من الجوارى فى رسم المصحف . وقوله تعالى : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الذاريات] قيل : هى السفن . وقيل : هى الرياح . وقيل : هى النجوم والكواكب . وقال تعالى : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم] .

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيَّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجىء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ[1] يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه

وفى هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن فى مُخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي[2] مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ[3] بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى[4] إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هى لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرَّق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

---

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. (٤٢) ﴾ [هود] أى : فى موضع عزل نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمنى : يمنعنى ويحمينى من الماء فلا أغرق . والعصمة : المنع والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حجز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] أى : حجز الموج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ؛ فكان من المغرقين . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) آوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وأوى إلى المكان ، وأوى إليه يأوى أويّا : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. (١٠) ﴾ [الكهف] أى : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودى.

ويقال: إن جبل الجودى يوجد فى الموصل ويقال: إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي[1] وَغِيضَ[2] ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ[3] وَقِيلَ بُعۡدٗا[4] لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

والبلع هو مرور الشيء من الحَلْق ليسقط فى الجوف ، وساعة أن يأتى فى القرآن أمر من الله تعالى مثل:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [هود]

فافهم أن القائل هو من تَنْصَاع له الأرض.

ولم يَقُل الله سبحانه: « قال الله يا أرض ابلعى ماءك» ؛ لأن هناك أصلاً متعيّناً وإنْ لم يقُله ، والحق سبحانه يريد أن ينمِّى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء.

---

(١) أقلعي : أمسكي (امتنعي) عن إنزال المطر . [كلمات القرآن] . والإقلاع عن الأمر : الكفّ عنه .
وأقلع عن الشيء: كفّ عنه . وأقلعت السماء : كفّت عن المطر . [القاموس القويم].

(٢) غيض الماء : نقص وذهب فى الأرض [كلمات القرآن].
وغاض الماء يغيض غيضاً : ذهب وابتلعته الأرض [القاموس القويم].

(٣) استوت على الجودى: استقرت على جبل بقرب الموصل . [كلمات القرآن].
وقيل : إن ذلك كان يوم عاشوراء، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل. [مختصر تفسير الطبرى].

(٤) بعداً: أى : هلاكاً وسحقاً. [كلمات القرآن].

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أي: أن توقف المطر.

وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصبَّ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحيّ تطفح إن كان هناك ما يسدُّ تصريف الماء؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي لا يمتص المياه؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجنِّد طاقاتها لإصلاح مواسير الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة.

وأقول هنا: إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان؛ لأني ألحظ أن الناس حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء الشرعي، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقيّ ليضيع دون جدوى [1].

وعلى الناس أن يدَّخروا الماء، ولا يُسيئوا استغلاله؛ لأن الماء حين يتوفَّر فهو يُحيي الموات، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى، ونحتاج لتخفيف العبء على شبكات الصرف الصحيّ.

باختصار؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرُّف فيها؛ لننعم بها، ونسعد بخيرها.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي .. (٤٤)﴾ [هود]

أي: اتركي المطر .. ومن ذلك أخذنا كلمة «قِلْع» الذي يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة، وهو الشِّراع.

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ. فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢١) وابن ماجه في سننه (٤٢٥) قال البوصيري في الزوائد: «إسنادُه ضعيف، لضعف حي بن عبد الله وابن لهيعة».

ويُقال: «أقلعت المركب» أى: تركت السكون الذى كانت عليه وهى واقفة على الشاطىء.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ .. (٤٤) ﴾ [هود]

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذى أمر الماء بأن يغيض.

ومادة «غاض» تُستعمل لازمةً، وتُستعمل متعديةً[1].

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ .. (٤٤) ﴾ [هود]

أى: استقرت السفينة على جبل الجودى.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود]

وهو بعدٌ نهائىٌّ إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة فى نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ[2] ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) ﴾

---

(١) تستعمل «غاض» لازمة، وهى أن تكتفى بفاعلها فلا تحتاج لمفعول به، وذلك مثل: غاض الماء. أى: نقص. وقد تستعمل متعدية أى: تتعدى فاعلها إلى المفعول به. فتقول: أغاض الله ماءه (للبئر) أو: غاضه وغيّضه.

(٢) أحكم: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. أى: أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين. وأحكم الأمر: أتقنه. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢) ﴾ [الحج] أى: يبيِّنها ويجعلها مُتقَنة مُقنعة مُحكَمة. [القاموس القويم].

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمَّل أىُّ أبٍ أو أىُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء.

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتِّباع نجد المثل فى إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسَّلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليُعلى جدار الكعبة.

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفِّذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

---

(١) ابتلى : اختبر وامتحن. بكلمات : بأوامر ونواه. فأتمهنَّ : أدَّاهنَّ لله تعالى على الكمال. [كلمات القرآن].

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام. قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قصُّ الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس. وفى الجسد : تقليم الأظفار.

﴿.. لا يَنَالُ عَهْدِي [1] الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

من هذا نعلم أن النبوَّة ليس لها بنوَّة ، بل النبوَّة لها أتباع .

ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقرَّ في ذهنه قول الحق سبحانه :

﴿.. لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..(١٢٦)﴾ [البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه يبيِّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إنَّ عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن تناسباً عكسيّاً ، فإن كان الابن قويّاً فعاطفة الأبوة والأمومة تقلُّ .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غنى قائم بأمر الأبوين ويتكفَّل بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

---

(١) العهد : الزمان والوصية والمَوْثِق والذِّمَّة والأمان . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. (٢٧)﴾ [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر يعهد عهداً : أوصاه به وجعله فى ذمته وضمانه . قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .. (٦٠)﴾ [يس] . [القاموس القويم] .

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير، لا مع الغَنِىِّ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب، وكلما كان الابن فى حاجة؛ كانت العاطفة معه.

وفى نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحاً كان يملك المبرِّر طلباً لنجاة الابن؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل فى السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله، فقال:

﴿.. رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود]

إذن: فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة.

وحين يقول نوح: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطىء؛ لأن الابن قد غرق، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ[1] (٤٦)﴾

---

(١) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾: أى: ليس من أهل ولايتك ودينك، ولا ممن وعدتك أن تنجيه معك. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾: قيل: معناه، أن سؤالك إياى ما تسأله فى ابنك المخالف لك عمل غير صالح. ﴿.. إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾: فى مسألتك إياى عن ذلك. [مختصر تفسير الطبرى].

ووعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿.. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم].

ويريد الحق سبحانه هنا أن يُلفتَ نبيَّه نوحاً إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع ، وإذا قاس نوح - عليه السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسى : «سلمان منَّا آل البيت» [1] .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هى بنوة اتِّباع ، لا بنوة نَسَب .

وانظر إلى دقة الأداء فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

ثم يأتى سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

فكأن البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه فى البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتِّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى : سنده ضعيف .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكّر جيِّداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يربيهم ربُّهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ[1] بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقرُّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى.

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [هود]

يوضِّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه.

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) عاذ يعوذ عوذاً: لاذ ولجأ. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس] ، أي: ألجأ إليه، وألوذ به، وأحتمي بحمايته [القاموس القويم].

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ[1] عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم[2] مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة، مما حمل فى تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى، وأغرق مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل[3].

وقول الحق سبحانه:

﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

تضمَّن أهل[4] نوح عليه السلام ومَنْ آمن به، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب.

---

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٦٥].

(٢) يمسهم العذاب: يصيبهم ويؤذيهم. وقال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود]. [القاموس القويم].

(٣) الأراذل: جمع أرذل: وهو الدون من الناس، وقيل: هو الدون فى منظره وحالاته. وقيل: هو الرديء من كل شيء. وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجامة. قاله الزجاج. [انظر: لسان العرب - مادة: رذل].

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التى قال عنها رب العزة: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] وخيانتها لنوح كانت فى الإيمان. قال ابن عباس: ما زنت امرأة نوح، إنما كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح. [انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٣].

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض.

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ [1] بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول:

﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾ [هود]

ولن يجد مَنْ يتهمه بالافتراء.

ومَنْ بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلَّغهم به نوح عن الله تعالى.

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجعله كثيراً.

ويقال: «إن هذا الشيء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجىء بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع.

إذن: فالشيء المبارك هو القليل الذى يؤدِّى ما يؤدِّيه الكثير ، مع مظنَّة أنه لا يفى.

---

(١) هَبَط يَهْبِط هَبْطاً ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سُفْل ، أو انحدر من عُلْو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب قعد هبوطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٤) ﴾ [البقرة] كما دُكَّ الجبل حينما تجلى الله عليه (القاموس القويم بتصرف)

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كلٍّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفي.

وقول الحق سبحانه:

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة، وبمضيِّ الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج.

وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت[1]، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المَجْل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه مُنتبراً[3]، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه !ما أعقله ! وما في قلبه

(١) الوكت: الأثر اليسير. قاله الهروي. وقال غيره: هو سواد يسير. وقيل: هو لون يحدث مخالف للَّون الذي كان قبله. [شرح النووي لصحيح مسلم - ٢/ ٥٢٨].

(٢) المجل: أن يكون بين الجلد واللحم ماء. والمجلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. مجلت اليد: نفطت من العمل فمرنت وصلبت وثَخُنَ جلدها وتعجَّر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. [لسان العرب - مادة: مجل].

(٣) منتبراً: مرتفعاً. وكل ما رفعته فقد نبرته. وانتبر الجرح: ارتفع وورم. [لسان العرب - مادة: نبر] قال النووي في شرحه لمسلم (٢/ ٥٢٨): «منه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه».

مثقال حبة من خَرْدلٍ[1] من إيمان»[2].

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تُعرض الفتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أشْرِبَها[3] نُكتت[4] فيه نَكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْباداً[5] كالكوز مُجَخِّياً[6] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلاّ ما أشْرِبَ مِنْ هَواه»[7].

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب.

والحق سبحانه يتحدث فى هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة ، وسيمتّعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضنّ عليهم ، ولكن سَيَلحقُهم العذاب.

---

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب التوابل . يضرب مثلاً فى الصغر ، قال تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان].

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

(٣) أى : خالط قلبه حُبُّ الفتن . وكأنه أسقاها . ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ .. (٩٣) ﴾ [البقرة] أى : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله . [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب].

(٤) النكت : أن تضرب فى الأرض بقضيب فيؤثر فيها . أى : أن الفتنة تترك أثراً فى القلب . [راجع : مختار القاموس - مادة : نكت].

(٥) مرباداً : أسود عليه غبرة . والمقصود من حيث المعنى لا الصورة . ذكره ابن منظور فى لسان العرب . والتربد : التلون . يقال : لما رآنى تَرَبَّد لونه . أى : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر . [اللسان].

(٦) الكوز المجخى : أى : المائل الذى يكبّ ويصبّ ما فيه . فالمجخى هنا هو : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبّ ما فيه . [اللسان - مادة : ج خ ى].

(٧) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان.

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثّرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثانى : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن منْ ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رانَت [1] الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك أنك جلستَ إلى معلّم [2] ، ولم يذكر عنك أنك قرأت فى كتاب ؛ ولذلك يأتى فى القرآن :

---

(١) ران الشىء ريناً : صدىء ، مأخوذ من الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ، ويُستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطّاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] أى : غطت غشاوة الذنوب على قلوبهم . [القاموس القويم] .

(٢) حاول مشركو قريش أن يطعنوا فى أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] فاتهموه بالتعلم من غلام نصرانى أعجمى ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا . يقول ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٨٦) : «ربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه» .

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ[1] ..(٤٤)﴾[القصص]

وجاء:

﴿.. وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ[2] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[3] مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلَّم عن معلِّم فمَن علَّمك؟

إنما عَلَّمك الله سبحانه.

وكأن الله سبحانه وتعالى علَّم رسوله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله، وأنه سبحانه لن يسلِّمه إلى خصومه ولا أعدائه.

ولذلك يأتى القول الكريم: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذى استمر ألف سنة إلا خمسين، ويأتى بعدها قوله سبحانه:

---

(١) ﴿وَمَا كُنتَ﴾: خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾: أى: بجانب الجبل أو الوادى أو المكان الغربى من موسى حين المناجاة. ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ (٤٤)﴾ [القصص]: أى: أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه. [تفسير الجلالين، ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٢) الأقلام - هنا - جمع قلم بمعنى السهم أو خشبة تشبهه، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه فى القمار - وقد نهى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى القرعة. ومن استعماله فى القرعة قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾[آل عمران] فالأقلام هنا: سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم. [القاموس القويم].

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة: قام بالتربية والرعاية لمن يكفله. وقوله سبحانه: (يَكْفُلُ مَرْيَمَ): أى: يرعاها ويربيها. وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران] أى: جعله كافلاً لها. [القاموس القويم].

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]

* * *

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد.

إذن: فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمَّت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه.

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسل جُدد إلا إذا لم يوجد فى الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانيةَ فى النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدِّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوَّامة تردعه وتردُّه إلى الإيمان.

أما إذا تصلَّبتْ ذاتُه ، ولم توجد لديه نفس لوَّامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلَوْمه.

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث ربُّ العزة سبحانه برسول جديد ، وبيِّنة جديدة ، وبرهان جديد.

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام.

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ(1) أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(2) ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٤) : «هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل» وقد قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) : «قيل: هُمْ عادان: عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ [الفجر]».

(٢) ﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية . أى: ما أنتم إلا مفترون.

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به.

وحين يقول لهم :

﴿ يَا قَوْمِ .. ۝٥٠ ﴾ [هود]

فهذا للإيناس أيضاً.

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء.

والله سبحانه لم يقل :

﴿ .. إن أَنتُمْ إلاَّ مُفْتَرُونَ ۝٥٠ ﴾ [هود]

إلا لأن الفساد قد طَمَّ[1].

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود :

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا[2] إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ[3] أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ ﴾

---

(١) يقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو : قد طَمَّ. ويقال : طَمَّ الماء إذا كثر. طَمَّ : غَمَر ، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ ﴾ [النازعات]. [راجع : لسان العرب ، والقاموس القويم].

(٢) كلمة (إن) في هذه الآية الكريمة ، نافية بمعنى (ما) النافية ؛ أي : ما أجرى إلا على الذي فطرني ، أو ليس أجرى إلا على الذي فطرني ، وهو الله سبحانه وتعالى. أجر فلان فلاناً - من بابي ضَرَبَ ونصر - أجْرا : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالوجهين فُسّر قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. ۝٢٧ ﴾ [القصص] وسمى المهر أجراً مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. ۝٦ ﴾ [الطلاق] أي مهورهن - وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. ۝١١٢ ﴾ [البقرة] أي ثوابه (القاموس القويم بتصرف)

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ؛ فهو فاطر. قال تعالى : ﴿ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ۝١٤ ﴾ [الأنعام] أي : خالقهما. وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ۝٥١ ﴾ [الإسراء] أي : خلقكم أول مرة في الدنيا. [القاموس القويم].

وكأن هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدِّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتم ، ثم آخذ منكم مالاً مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة تَرْك ما تَعوَّدْتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة.

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن: فلا مشقة أكلِّفكم بها ، كما أننى فى غنًى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى.

﴿ .. إنْ أجْرِى إلاَّ عَلَى الَّذِى فطَرَنِى[1] أفَلا تعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود]

أى: أنَّ أجرى على مَنْ خَلَقنى مُعَدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان.

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة.

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشترى بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمَّى هذه العملية بيعاً وشراءً.

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه.

وقول هود عليه السلام:

﴿ لا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْرًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

---

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبدأهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشيء شقه فَطْراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء.

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة [1] :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ..(٥١) ﴾ [هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها [2] ؛ لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا .. (١٨) ﴾ [الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجمَّة ، وهى المنهج الرِّسالى الذى جاء به هود عليه السلام.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا [3] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

---

(١) قالها نوح عليه السلام : [سورة يونس، آية ٧٢] ، [سورة هود ، آية ٢٩] ، [السعراء ، آية ١٠٩]. وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود : [الشعراء : ١٤٥] وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] . وقالها شعيب [الشعراء : ١٨٠].

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بنى إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [الشعراء] فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل.

(٣) مدراراً : صيغة مبالغة، أى : كثير غزير متتابع. وقال الله سبحانه :﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أى تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم] . وقد وردت كلمة (مدراراً) فى القرآن الكريم ثلاث مرات : فى الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفى الآية الثانية والخمسين من سورة هود، وفى الآية الحادية عشرة من سورة نوح.

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول : يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى فات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصى .

وعلى الإنسان أن يتذكّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هى مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسيك رتابة [1] الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحّح العقيدة فى قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقَّون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هى أن تؤدّى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل فى ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام فى حركة الحياة ، يريدون منّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل فى حركة الحياة غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس فى الشرق ، وحضارة الرومان في الغرب .

(١) رتابة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبذاته وتنسى مُسيِّره ومُسَبِّبه . قال في اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم . والرّتب : الشيء المقيم الثابت» .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأُميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أُميٌّ (١) أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول.

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام فى الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم: لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثَّل أوامر المعبود فى «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يَردْ فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعَله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون.

إذن: فالعبادة هى كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها فى الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هى التى بنى عليها الإسلام ؛ وليست هى كل الإسلام (٢).

إذن: فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام فى أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة فى الحياة ، ولا بد أن

---

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة فى القرآن، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ..(١٥٧)﴾ [الأعراف].
الأمى نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التى وُلد عليها مفطوراً بفطرة الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبى ، وهى تشريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والأمية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقيل أنه قرأ ونقل عن غيره . « من أقوال الشيخ الشعراوى » م.س

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦).

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حول..!

فالعبادة تستوعب كل حركة فى الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العبادة تنحصر فى باب العبادات فى تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس فى المعاملات تؤدى إلى انتظام حياة الناس .

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ..(٥٢) ﴾ [هود]

والاستغفار [1] لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التى ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذى جاء من قبله ، أو هى الذنوب التى ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ..(٥٢) ﴾ [هود]

والتوبة تقتضى العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

---

(١) غفر الذنب يغفره - كضرب - غفرا وغُفرانا ومغفرة . ستره وعفا عنه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. (٥٨) ﴾ [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صيغتان للمبالغة وكلها من أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمى ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ .. (٦٤) ﴾ [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم . [القاموس القويم باختصار]

مثلما قال سبحانه فى موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ [(١)] عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ [(٢)] رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن: فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء.

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التى تنتظم بها كل حركة فى الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفِّر لنفسك القُوْتَ [(٣)] باستنباطه من الأسباب التى طمرها [(٤)] الله سبحانه وتعالى فى الأرض.

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء.

---

(١) أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر. (تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٠).

(٢) وذلك أنهم قالوا لرسولهم هود عليه السلام: ﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف].

(٣) القوت: الطعام يحفظ على البدن حياته، وجمعه «أقوات». قال تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى: أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر. وأقات النبات أو الحيوان: أمدَّه بقُوته الذى يحفظ حياته. وأقات عليه: حفظه وحفظ بقاءه. قال تعالى: ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء] أى: غالباً مقتدراً، أو حافظاً واقياً حياته. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) طمرها: دفنها وأودعها وخبأها فى باطن الأرض. والمطمورة: حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيىء خفيّا يطمر فيه الطعام والمال. أى: يخبأ. [لسان العرب - مادة: طمر].

والسماء هى كل ما عَلاكَ فأظلّكَ [١] ؛أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها.

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج]

أى : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شيء ويربطه فيما علاه ويعلّق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت، وغيظه لن يرحل عنه.

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود]

والمدرار : هو الذى يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر.

إذن : المدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً.

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : «اللهم حوالينا ولا علينا» [٢].

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضرُّ ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قَوة إلى قوتنا.

---

(١) قال الزجاج : السماء فى اللغة : يقال لكل ما ارتفع وعلا : قد سما يسمو . وكل سقف فهو سماء. والسماء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء . [اللسان : مادة سمو].

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩٧) ، والبخارى فى صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة على عهد النبى ﷺ فبينا النبى ﷺ يخطب فى يوم جمعة قام أعرابى فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فرفع يديه - وما نرى فى السماء قزعة - فو الذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ ، فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذى يليه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابى فقال : يا رسول الله تهدَّم البناء ، وغرق المال ؛ فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : «اللهم حوالينا ولا علينا».